

من عرف نفسه عرف ربه

سَمَاءةُ إِسْبِيخَ
أحمد بن محمد بن عبد الخليلي
المفتي العام لسلطنة عُمان



الراعي الإعلامي



موقع بصيرة الإلكتروني

موسوعة إلكترونية
في العلوم الإسلامية
لسماحة الشيخ العلامة

إمام محمد بن عبد الوهاب

المفتي العام لسلطنة عُمان

للتواصل

www.baseera.net

info@baseera.net

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وصحبه وكل من اتبع هداه ورشده، أما بعد...

فقد شاعت رواية «من عرف نفسه عرف ربه»، وقد وجدنا من علمائنا وغيرهم من يعزوها إلى رسول الله ﷺ كما وجدنا آخرين ينكرون أن تكون من حديثه عليه الصلاة والسلام، وقد رغبت في كشف الستار عن ذلك، لذلك نرجو الجواب هل هذا الكلام من حديثه ﷺ، أو أنه مما عزي إليه ولم يصح عنه، مع بيان المراد به؟.

الجواب/ عزت طائفة من العلماء هذه القول إلى النبي عليه الصلاة والسلام، ولعل أول علماء المذهب يعزوه إليه هو الإمام أبو يعقوب الوارجلاني في كتابه «الدليل والبرهان» ١٩/٣، وتابعه على ذلك جماعة منهم قطب الأئمة رحمه الله في «هميان الزاد» ١٥٤/١، وذكره مرة أخرى بأنها حديث قدسي ٣٠٤/١١، وعزاه حديثاً مرفوعاً إلى النبي ﷺ المحقق الخليلي رحمه الله في «فتاواه» (التمهيد ٤٠٤/١)، ونور الدين السالمي رحمه الله في «مشاركه» ٣٠٢/١، ومنهم من ذكره من غير أن يعزوه إلى النبي ﷺ، ومنهم العلامة الشيخ/ سعيد بن أحمد الكندي رحمه الله في «تفسيره الميسر» ٧/٣.

وقد ذكره من غير علماء المذهب كثير عازين إياه إلى النبي عليه الصلاة والسلام، منهم الإسفرائيني في «التبصير» ص ١٦٢، والغزالي في «كيمياء السعادة» ١٢٤/١، والرازي في «تفسيره» ١١/٩، وأبو الحسن النيسابوي في تفسيره ٣٣٣/٣، والبقاعي في «مصرع التصوف» ٤٣/١، وإبراهيم بن محمد الحلبي الحنفي في «نعمة الذريعة في نصره الشريعة» ص ٤٣، والنخجواني في «الفواتح الإلهية».

وذكر الدكتور سليمان دنيا في «الحقيقة عند الغزالي» ص ١٠٥ أن الغزالي تردد في هذه العبارة، فجعلها مرة حديثاً ومرة آية من الكتب السابقة، قال: «ولقد حاولت أن أحصي مرات ترددها في كتبه فلم أستطع»، وذكر الماتريدي في «التوحيد» (١٠٢) أنه أجمع عليه، ولعله يريد أنهم أجمعوا على صحة معناه لا على نسبته.

وبالرجوع إلى كتب الحديث لم نجد له ذكراً على أنه حديث مرفوع ولا موقوف ولا صحيح ولا حسن ولا ضعيف ولا موصول ولا معلق، إذ لم أجد قط سنداً له في مجاميع السنة، وقد نص غير واحد من علماء الحديث بأنه لا أصل له، فقد ذكره ابن تيمية في مواضع متعددة من غير أن يعزوه إلى رسول الله ﷺ إلا في كتابه «بغية المرتاد» ٥٢٦/١ فإنه عزاه إلى النبي عليه الصلاة والسلام وهي إحدى عجائبه، فإنه كان ضليعاً بعلم الحديث حتى أن المتعصبين له قالوا: «كل حديث لا يعرفه ابن تيمية فليس بحديث» على أنه بنفسه قال في «مجموع الفتاوى» (٣٤٩/١٦): «وبعض الناس يروي هذا عن النبي ﷺ وليس هذا من كلام النبي ﷺ ولا هو في شيء من كتب الحديث ولا يعرف له إسناد». اهـ

وذكره أيضا ابن القيم في العديد من مؤلفاته من غير أن يعزوه إلى رسول الله ﷺ وقال في «مدارج السالكين» (٤٢٦/١): «وليس هذا حديثا عن رسول الله ﷺ، إنما هو أثر إسرائيلي بغير هذا اللفظ أيضاً يا إنسان اعرف نفسك تعرف ربك»، وذكره الهيثمي في «الصواعق المحرقة» (٣٧٩/٢) وقال بأنه عزي إلى علي كرم الله وجهه، ثم قال: «والمشهور أنه من كلام يحيى بن معاذ الرازي». وقال في «الفتاوى الحديثية» (ص ٢٠٦): «لا أصل له وإنما يحكى من كلام يحيى بن معاذ الرازي الصوفي».

وأنكر النووي ثبوته في «فتاواه» (ص ٢٤٨)، وقال ابن السمعاني في «قواطعه» (٦٠/٢): «وهذا لا يثبت عن النبي ﷺ وإنما هو لفظ محكي عن يحيى بن معاذ الرازي»، وقال أبو عبد الرحمن الحوت في «أسنى المطالب» (ص ٢٧٧): «ونسبه بعضهم إلى أبي سعيد الخراز، وبعضهم إلى يحيى بن معاذ الرازي».

وفي «تخريج أحاديث إحياء علوم الدين» (١٥٣٥/٤) ما نصه: «وهذا القول يحكى عن يحيى بن معاذ الرازي يعني من قوله»، وقال الألباني في الضعيفة (١٦٥/١): «لا أصل له».

وذكره الألويسي في العديد من المواضع من تفسيره ولم يعزه إلا في موضع واحد (١٢١/١١) عزاه إلى يحيى بن معاذ الرازي.

وبالجملة؛ فإن صيارفة علم الرواية ليس بينهم خلاف أنه ليس حديثا على الإطلاق، وإن اختلفوا بين من يعزوه إلى أثر إسرائيلي أو إلى

يحيى بن معاذ الرازي أو إلى أبي سعيد الخراز، وقد عزي إلى علي كرم الله وجهه من غير سند إليه كما تقدم.

أما نسبته إلى رسول الله ﷺ فلا تعدو أن تكون وهما من بعض الناس ثم تنقل حتى عده بعضهم حديثاً صحيحاً، ومنشأً ذلك الثقة بالواهم الأول من غير تكلف البحث عنه في مظانه، وقد وضح الصبح لذي عينين، فتبين أنه ليس من حديث رسول الله ﷺ في شيء، ولا من قول أحد أصحابه، ولكن هذا لا يمنع أن يكون له معنى صحيح مقبول، ولذلك كان الكل متفقين على صحة معناه وإن اختلفوا في تأويله، وقد تقدم أن الماتريدي حكى الإجماع عليه، وإليك ما قيل في معناه:

القول الأول: أنه يدل على أن من عرف نفسه بأوصاف العبودية الدنية عرف ربه بأوصاف الربوبية العلية، فمن عرف نفسه بالجهل والعجز والضعف والضرورة والخفة والطيش والذلة والمسكنة والاحتياج إلى صاحبة والولد والافتقار إلى الزمان والمكان والقصور في الإدراك بحيث لا يحيط بصرا بجميع المبصرات كما لا يحيط سمعاً بجميع الأصوات وكونه عرضة للموت والفناء والفقر والحاجة وعروض الأحوال عرف ربه بأضدادها، فأيقن أنه عليم بكل شيء، قدير على كل شيء، حلیم قوي بصير بكل شيء، سميع لكل صوت لا يخفى عليه شيء من خلقه، ولا يفوته مسموع أو مرئي، وهو غني عن كل شيء وإليه يفتقر من عداه، ولا تعرض له الأحوال، ولا يتبدل من حال إلى حال، فهو حي لا يموت وباق لا يفنى، ودائم لا يزول، وعزيز لا يذل وكريم لا يبخل.... وهكذا.

ومن المعلوم أنه تندرج في هذا جزئيات أخرى مما يرجع إلى هذه القاعدة الكلية ومن ذلك أن يدرك أن من التباين والتضاد بين صفات الخالق وصفات الخلق كون المخلوق تعرض له الأحوال، فيقلب بين السرور والحزن والانبساط والانقباض والأنس والوحشة والأمن والخوف والراحة والتعب والصحة والسقم والنشاط والكسل والحركة والسكون، وأن الله سبحانه منزّه عن ذلك كله، فإن هذه كلها أعراض وأحوال لا تدل إلا على الحدوث والفناء، فكل منها محال على الله سبحانه إذ يستحيل عليه أن تعرض له الأحوال أو يتحول من حال إلى حال.

واقصر الفخر الرازي على هذا القول، وأجمل ما فيه بقوله في «التفسير الكبير» (٨٢/١): «والمعنى من عرف نفسه بالضعف والقصور عرف ربه بأنه هو القادر على كل مقدور ومن عرف نفسه بالجهل عرف ربه بالفضل والعدل ومن عرف نفسه باختلال الحال عرف ربه بالكمال والجلال».

وعليه أيضا قول قطب الأئمة في «هميان الزاد» (٣٩/١) حيث حمله: «على معنى أن صفات نفسك على الضد من صفات ربك، فمن عرف نفسه بالعبودية عرف ربه بالربوبية، ومن عرفها بالفناء عرفه بالبقاء، ومن عرفها بالجفاء عرفه بالوفاء، ومن عرفها بالعجز عرفه بالعز، ومن عرفها بالخطأ عرفه بالعطاء».

وكذلك نور الدين السالمي حيث قال في «مشارقه» (٣٠٢/١): «فإن نفس المخلوق متصفة بحسب ذاتها بناقص الصفات فإذا عرفها أنها كذلك عرف أن خالقها متصف بالكمال الذاتي لاستحالة مشابهة الصنعة لصانعها».

القول الثاني: أن من عرف نفسه بالصفات الحسنة عرف اتصاف ربه بحقائق تلك الصفات بطريقة الأولوية، فهو إن نظر إلى نفسه وجد أن الله سبحانه ألبسه من الصفات البهية ما ميزه به عن جنس الحيوان، ورفع به قدره فوق كثير من مخلوقاته، وإن كان اتصافه بهذه الكمالات أمرا نسبيا محدودا، فهو على طريق المجاز حي عليم قدير سميع بصير حلیم كريم مريد حكيم متكلم رؤوف رحيم، وما هي مع قصورها إلا مظاهر لكمالاته تعالى التي لا تحد، وقد أوجدها في عبده لتكون حجة عليه إن لم يؤد شكرها، ومن عرف ذلك من نفسه أدرك أن الله واهب هذه الصفات هو أولى بها، وعرف اتصافه سبحانه بمطلق حقائق هذه الكمالات، بحيث لا تحد بحد ولا تقيد بقيد، فهو العليم بكل ما كان وما سوف يكون وما لم يكن أن لو كان كيف سيكون، يعلم البواطن كالظواهر، والسرائر كالعلانية، فلا يخفى عليه مما في الوجود شيء، وقدرته أحاطت بكل شيء فلا يعجزه معدوم أن يوجده ولا موجود أن يعدمه، ولا ميت أن يحييه ولا حي أن يميته، ولا غني أن يفقره ولا فقير أن يغنيه، ولا قبيح أن يجمله ولا جميل أن يقبحه، ولا سعيد أن يشقيه ولا شقي أن يسعده، تنفعل له الأشياء كلها، فيتصرف فيها إيجابا وإعداما، ورفعا وخفضا، وبسطا وقبضا، وإحياء وإماتة، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ، كُنْ فَيَكُونُ﴾ * ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٢ - ٨٣].

وهو البصير بكل ما في الوجود لا يحجبه شيء عن شيء ولا تلتبس عليه الصور، ولا تختلف عليه الظواهر والبواطن، وإنما أحاط بصره بكل دقيقة وجليلة وشمل كل ما رق وغلظ، وكل ما لطف وصلب، فالبواطن

عنده كالظواهر، والرقائق عنده كالغلائظ، وهو السميع الذي أحاط بدقائق الأصوات وخفاياها وبجلالها وظواهرها لا يشغله صوت عن صوت، ولا تلبس عليه بكثرتها ولا تشتبه عليه باختلاطها، وهو الكريم الذي وسع خلقه فضلا ومنة وعطاء ولطفًا، والحليم الذي لم يستفز أعداؤه بما يواجهون به نعماءه من الكفران والجحود، وبما يصفونه به من النقائص، وبما ينسبونه إلى ذاته العظيمة وصفاته الكريمة من العيوب، تعالى الله عما يقولونه علوا كبيرا، وإنما يؤخرهم لميقات محدود وأجل معدود، وما الله بغافل عما يعمل الظالمون.

وهو الغني الذي يفتقر إليه كل موجود، وهو غني عن الموجود والمعدوم، وهو الحي الذي لا يموت لا بداية ولا نهاية لوجوده وحياته، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٨٨].

وبالجملة؛ فإن ما في الإنسان من هذه المظاهر الكمالية لا يعدو أن يكون صورا تدل على كمالاته تعالى وإنما الفرق بين ما يتصف به الإنسان المخلوق وما يتصف به الله الخالق أن ما يتصف به الإنسان لا يعدو أن يكون مظاهر نسبية محدودة، وما يتصف به الخالق حقائق مطلقة لا حدود لها، وما يتصف به الإنسان هو منحة من الوهاب الكريم وحلة ألبسه إياها إلى حين، وما يتصف به الخالق إنما هو من كمالات ذاته لا يزول ولا يحول، وهي صفات أزلية أبدية، ليست معلولة لشيء ولا موقوفة على شيء، ويظهر من كلام الإمام أبي يعقوب الوارجلاني أنه يعتمد هذا القول كما في الدليل والبرهان (١٦/٣).

القول الثالث: عزاه المحقق الخليلي رحمه الله تعالى إلى بعض الصوفية وهو أن النفس هنا هي عبارة عن الروح، وحسب الإنسان أن يعرف روحه ليعرف عظمة ربه سبحانه، فإذا كانت هذه الروح - التي بها قيام جسمه وأثرها في كل جزيئة منه، وسلطانها نافذ في كل ما دق وجل منه - لا يعرف الإنسان ماهيتها، ولا يتخيل حقيقتها ولا يدركها بأي حاسة من حواسه، فلا يبصرها بعينه ولا يسمعها بأذنيه ولا يمسها بيديه، ولا يشمها بمنخرية، ولا يذوقها بلسانه أو شفثيه، ولا يكيفها بعقله ولا يتصورها بخياله، ولا يعرف كيفية اتصالها بجسمه ولا انفصالها عنه، فإنه أخرى به أن يكون عن معرفة حقيقة الذات الإلهية أعجز، وأن يدرك قطعا أنه لا يمكنه أن يدركه بأي حاسة من حواسه، إذ الروح لا تعدو أن تكون نقطة من سره وأثرها من أمره ومظهرها من غيبه، ومع ذلك حيل بين الإنسان وبين اكتشاف ماهيتها واكتناه حقيقتها، ووقفت دون ذلك ملكاته وطاقاته خاسئة حسيرة، فكيف يمكنه مع ذلك أن يتوصل إلى سر الحقيقة الإلهية ويستجلي كنهها؟!.

على أن الروح إنما هي آية من آيات الله الخفية تعرف بآثارها وتجلياتها في الجسم بما يفيض منها عليه من الحياة وما يتبعها من الطاقات والملكات، وهكذا شأن الله سبحانه وتعالى فإنه الباطن الظاهر فلا يدرك بالحواس ولا يعرف بالقياس، وإنما يظهر بتجلياته في خلقه، إذ ما من ذرة من ذرات مخلوقاته إلا وهي مشرق لأنوار تجلياته ومظهر لجماله ومجلى لجلاله وكماله.

وذيل المحقق الخليلي ما ذكره في هذا القول من غموض أمر الروح وعدم معرفة الإنسان بمكانها من جسمه لا فوقه ولا تحته ولا وسطه ولا هي أقرب إلى شيء منه عن شيء ولا أبعد عن شيء منه عن شيء إلى غير ذلك من صفاتها بقوله «التمهيد» (١/١٩٠ - ١٩١): «فبذلك تعلم أن الذات الإلهية المقدسة منزهة عن وصفها بالجسم والعرض والشكل والحلول والاستعلاء والنزول والحركة والسكون والاتصال والانفصال وقرب المسافة وبعدها، وعن مماسة الحواس وبلوغ الوهم والقياس وإحاطة الفكر وإدراك البصر ونحو هذا، وكما أن الروح مقومة لجسدها بحلولها فيه فهو حي بها عليم يريد إلى غير ذلك، فالله أولى بذلك، قامت به السموات والأرض ومن فيهن خلقا واستمدادا لتكوينهن وبقائهن وإفاضة كل خير عليهن، فهو القائم بذاته والقائم على ما سواه بكل شيء، بل لا قيام بالحقيقة لغيره، إذ لا قيام له إلا به، فهو الواجب الوجود لذاته، فلا وجود لغيره إلا به».

وقد ذكر هذه الأقوال الثلاثة في شرح هذه الجملة البليغة بأسلوبه البديع وأوسعها بيانا وأتبعها أن كل واحد من هذه الأقوال الثلاثة سائغ في بيان معنى هذه الجملة، وعليه فإن ذلك هو القول الرابع في شرحها، وهو الذي اختاره وعول عليه.

وذكر ابن القيم هذه الأقوال الثلاثة في «مدارج السالكين» (١/٤٢٨) وإنما عبر عن القول الثالث بـ «أن هذا من باب النفي أي كما أنك لا تعرف نفسك التي هي أقرب الأشياء إليك فلا تعرف حقيقتها ولا ماهيتها ولا كيفيتها فكيف تعرف ربك وكيفية صفاته».

وبالجملة؛ فإن ما قالوه في شرحه هذه الجملة يرجع إلى ما ذكرته، وقد حاولت بسط ما شرحوه وإيضاحه بذكر بعض الجزئيات التي لم يعرجوا عليها، وأرجو أن أكون وفقت - بعون الله تعالى وفضله - للإجابة على هذا السؤال بما يكفل إفادة السائل المستفيد، ومن الله تعالى التوفيق والتسديد، وهو حسبي وكفى، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أحمد بن حمد الخليلي

٧ ربيع الأول ١٤٣٦هـ